الجزء الثالث

تايرسس

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

الضرورة

ان العقل، على ما يحيط به من حدود، وينطوي فيه من مخاطر، لا يزال قوة لا غنى عنها من قوى الانسان، ولكنه ليس سر كيانه الاوحد. فالانسان ليس آلة تفكر، وينبغي له ألاَّ يحاول ان يصير. ولا هو حيوان مفكر، فهو اكثر من ذلك كثيراً، اعظم واشد تعقداً. يقول اعظم الشعراء: «ما انبله في عقله وما اكثر مواهبه». ثم يضيف عبارة من عباراته التي لا تجارى ولن تنسى: «انه جوهر التراب». بيد ان التفكير نشاط واحد من وجوه نشاطٍ تلازمه وتصيّره انساناً. فليس له من التفكير مفرّ.

يلازم التفكير جميع الرجال والنساء، ليل نهار، من الطفولة الى الشيخوخة، في الصحة والمرض، في النوم واليقظة. فالدماغ يعمل كما يعمل القلب، ينبض نبضاً لا ينقطع. في انسجته التي تزن ١٤٠٠ غرام، تسجل وتخزن بلايين على

بلايين من الذكريات ، والعادات ، والغرائز ، وضروب القدرة والشهوة والرجاء والخوف ، صور وألوان واصوات ، وحسابات تفوق التصوّر في دقتها ، وحوافز ملحة وحشية غير مصقولة ، صوت همسة سمعت من ثلاثين سنة ، قرار حازم يطبعه في الذهن التطبيق اليومي خلال خمسة عشر ألف يوم ، البغضاء التي لم يزل يحتفظ بها منذ الطفولة ، والبهجة التي لم ينلها ولكنه لا ينفك يتخيّلها ، التقديرات المعقدة لألوان الضغط المختلفة في تركيب جسر ، ومقدار الضغط الذي توقعه إصبع واحدة على وتر واحد ، تطوّر اللعب في عشرة آلاف مباراة شطرنج ، والخط الدقيق المنحني الذي ترسمه شفة او أكمة او معادلة رياضية او كرة طائرة ، ظلال من الانغام والظلال ، والكآبة والنشوة ، وجوه اغراب لا يحصون ، عطر حديقة ، صلوات ومخترعات وجرائم وقصائد ونكات وألحان وارقام ، ومشكلات لم تحل ، وانتصارات عفّى عليها الزمن ، الخوف من الجحيم ، ومحبة الله ، مشهد نصل عشبة في الحقل ، ومشهد السماء ترصعها الكواكب .

ما اغرب ان تكون مستيقظاً وان يتاح لك ان تراقب رجلا نائما . فمن النادر أن يستطيع النائم متى استيقظ ان يتذكر شيئاً مما حدث له في نومه . فكأنه الجزء الميت من حياته . ولكنك تدرك وانت تراقبه انه حيّ ، وان الفكر كان جزءاً من هذه الحياة . فقد كان جسمه يتحرك ، وجفونه

ترفّ ، وعيونه ترى صوراً متحركة في الظلام ، وكانت اعضاؤه ترسم خطوطاً في حركتها ، لان ما رآه في نومه كان يرشد خطاه في حشد من الناس ، او يزيّن له انه يشهد سباقاً ، او ملاكمة ، او قنصاً او رقصاً . لقد افترّ ثغره عن بسمة لطيفة ، او بدا عليه انه قلق ، او تقلب غضباً من جنب الى جنب ، ولعله احياناً يصرف اسنانه (كما كان بيرون يفعل) سخطاً ، ومع ذلك فهو نائم . او لعله يتكلم احياناً في صيحة لا تكاد تكون مفصحة ، او في همهمة خفيفة تبدو لعقله كأنها صيحة قوية . قلبه يشتد خفقاناً لحماسة ، او يبطئ في قنوط . انه يعرق . لقد احس مرور الوقت فهو يعد نفسه للصباح وما فيه من ضوء وضجيج . وخلال ذلك كله لا ينفك يفكر — تفكيراً غامضاً عاطفياً ، اذا كان ذا عقل لم يصقلهُ التدريب ، او تفكيراً قوامه الرموز والحيوانات او الآلهة ، اذا كان من الناس الذين لا يزالون على الفطرة البدائية . انه يفكر ، آناً يتذكر ، وآناً يقدّر المستقبل ، وفي احيان كثيرة لا تكاد تحصى ، يتخذ وهو نائم قرارات معقدة حازمة في موضوعات صعبة ، تصحبه من حياة اليقظة الى حياة النوم . يقول لك : « انا لا احلم ، بل أنام وحسب » ولكنه يستيقظ وقد سُجّل تفكيره خلال ثماني ساعات من النوم ، على صفحة عقله ، كما تبيضّ شعرة من شعر رأسه او تنقبض عضلة من عضلات كتفه . قد يطلق على ما حصل وصف « الرؤيا » او « العزيمة » او « النزوة » ولكن أيّاً كان الوصف فهو فكر ، اشتغل بـه عقله وهو

نائم ، كما كان قلبه يخفق ، وغدته الحلوة تفرز عصيرها الهاضم . فالإنسان يفكر ، مستيقظاً ونائماً . وقد يبدو احياناً ان الفارق المقدم بين القوي والضعيف من الرجال ، منطوٍ في القدرة على إخضاع الافكار وتوجيهها ، فالرجل الحكيم الزاخر النشاط ، يلتمس الوسيلة لاستعمال عقله ، ولا يكفّ إذا وان النوم على جسده ، واما الضعيف السقيم فيستسلم للاحلام خلال نصف حياته ، وإن كان مفتّح العينين . وكل رجل من رجال الاعمال يعترف بهذا ساعة يقول : « هذا قرار صعب ، سأنام عليه » . وقد كان بوانكاريه الرياضي العظيم يعرفه ايضاً أصدق معرفة ، فكان قبل ان يأوي الى فراشه يكتب اصعب المسائل الرياضية التي عرضت له . وكثيراً ما كان يجدها قد حلّت عند اليقظة ، بعد ان استوضحها خلال الليل عقله الذي لا ينام .

فالناس يفكرون ، ليل نهار ، طوال حياتهم . انهم يفكرون كما يتنفسون ، فهذه طبيعتهم ولا رادّ لها . فمن الاجرام في الحالين ان تحبس عنهم افضل مادة للتفكير ، وان تحول بينهم — بغير سبب عادل — وبين الصحة والحرية والحياة . وواجبهم نحو انفسهم ، يقتضيهم ان يفكروا كأزخر ما يكون التفكير واغنى ، وان يروّضوا عقولهم ويستمتعوا بها كما يروضون ابدانهم ويستمتعون بها ، حتى يصيرا كلاهما — العقل والبدن — وحدة متآلفة هي حياتهم .

يميل علماء الانسان في الحين بعد الحين الى الاعتقاد بأن المقارنة بين مجتمع وآخر امرٌ مستحيل ، وبخاصة اذا وصف مجتمع ما بأنه مجتمع متفوق ، وآخر بانه منحطّ . ولكنهم مع ذلك يوافقون ، كما نوافق نحن ، على ان الشعب الذي يموت اطفاله في طفولتهم ، أو يتدرجون نموّاً على ضعف ومرض ، هو شعب منحط جثمانيا بالقياس الى شعب يعيش اطفاله ويشبون وينعمون بحياة طويلة سليمة . وعلى هذا الغرار ، ليس ثمة شك في ان الشعب المتفوق هو الشعب الذي يستعمل عقول افراده ، ويتيح لهم تياراً لا ينقطع من الافكار الحافزة ليفكروا فيها ، ويضمن الوسائل التي تجعل الحصول على المعرفة متاحاً لجميع طبقاته بغير نظر الى جنس او لون او طبقة او دين او فقر ، ويحفز الناس الى ابتكار الافكار الجديدة ، ويحترم الذين يدوّنون المعرفة وينقلونهـــا ، ويبقي الطرق مفتوحة لتبادل المعرفة داخل حـدود البلاد ووراء حدودها ، مكاناً وزماناً . ان الشعوب التي سارت على هذه الخطة كانت قليلة — اقل ممـــا يجوز . ونحن نعجب بأثينا الجمهورية ، وروما الاغسطينية ، وايطاليا في عهد النهضة ، وفرنسا وانكلترا وألمانيا في القرن التاسع عشر لانها كانت تشجع المعرفةَ وتبادُلَ الافكار وتلاقحها . ومع ذلك يؤسفنا ان نذكر حين نتصفح عصور التاريخ كيف عاش ملايين من الناس وماتوا ، وقامت مئات من المجتمعات البشرية وبادت ، وهم جميعاً غارقون في الجهل ، مخدّرو الفكر ، كأنهم ولدوا صُمّاً عُمياً .

فالمعرفة لم تبسط صفحتها الواسعة الغنية

بالذخائر امام عيونهم .

إن الفاقة المثبطة كبتت ثورتهم النبيلة ،

وجمّدت التيار الانيس في نفوسهم

ومما يبعث على التروّي ان نتصور اننا نحن ، او اولادنا ، او حفدتنا ، خليقون ان يصيبنا مثل هذا التخدير ، وان تكبّل عقولنا بالقيود الضيقة التي يفرضهـــا العمل اليومي الرتيب او الالم ، او الملذة وهي افظع . ففي وجه هذه المخاطر ينبغي ان نعلن ونؤكد حق المعرفة وحرية الحصول عليها واستعمالها .

الفصل التالي

التبعة

لا يجوز لأية فئة بعينها من الناس ان تستأثر بحق المعرفة نيابة عن الشعب ، ولا لأيّ معهدٍ من معاهد العلم ان ينفرد بالحفاظ عليه . ففي اشد الايام بلاء في الحرب مع هتلر ، وجد الذين كانوا اشد الناس حرصاً على دوام المقاومة له ، وحفظ روح الاستقلال حيّاً بين الشعوب المغلوبة على امرها ، ان صيانة هذين المبدأين هي اشق ما تكون في الشعوب التي كان النظام الاجتماعي فيها ابسط ما يكون ، وان صيانتهما كانت ايسر ما تكون في الشعوب التي قامت فيها هيئات مختلفة منظمة ، للفكر والتعبير عنه — كالنقابات ، ومجالس القرى ، واندية التسلية ، والمعاهد الفنية ، واندية النساء ، والجمعيات الاجتماعية ، ورابطات الفنون الرفيعة ، والصحف ، ودور النشر المستقلة ، والمنظمات التي تضم رجال الطب او القانون وهكذا . وكذلك نجد ان اقوى ضمان لانتشار المعرفة

ودوام حيويتها في مجتمع حرّ ، هو اهتمام انواع مختلفة من هيئات منظمة فيه وحرصها عليها . فمن الخير ان تكون هناك انواع متنافسة من المدارس ، ومن الخير ان تشرف النقابات واندية العمال على تربية اعضائها . ولأنْ تكون هناك عشر صحف محلية مستقلة او نحو ذلك ، أفضل من ان تكون هناك مئة صحيفة هي نسخ طبق الاصل من نشرة واحدة يبعث بها من المدينة الكبيرة الى الفروع . ان جمعية واحدة من هواة علوم التاريخ الطبيعي تقوم في مقاطعة ما ، لاجدى من منهج يذاع ويعد محاضراته ويذيعها « ثقة مشهور » . ان حرية المعرفة ، كسائر الحريات ، تقوم على دعائم مختلفة ، ولن تكون سليمة البنيان ان قامت على دعامة واحدة وحسب ، فالتفكير هو الشغل الشاغل لكل انسان .

ومع ذلك فالمعرفة قوة ، والقوة تقتضي ان تلازمها التبعة . ان « حرية استعمال المعرفة » عبارة تنطوي على خطر ، او هي عبارة لا معنى لها ، الا اذا قصد بها — ككل حرية — نشاط خاضع للشعور بالتبعة . واظلم الصفحات في كتبنا التاريخية حافلة بسير رجـــال نالوا معرفة واسعة ثم استعملوها بغير وازع على الاطلاق . وعلى قدر ما تزداد سيطرة الانسان على الاساليب الصناعية والقوة الميكانيكية يزداد ظهور هذا النوع من الرجال ، إذ يندر بين فروع المعرفة ما لا يمكن استعماله لأذى الناس .

وقد مر بنا بحث القيود التي تفرض على استعمال المعرفة ، بتفاق غالب بين اهل الرأي . وفي الوسع تلخيصها في مبدإ واحـــد – وهو مبدأ يطوي الحقيقة التي نسلم بها جميعاً ، والمشكلة التي تحيّر بعضنا في الحين بعد الحين ، تحييراً شديداً . اما المبدأ فهو بكل بساطة : ينبغي الا تستعمل المعرفة لأذى الناس . واما المشكلة فهي تعريف الناس الذين يجب ان نسعى الى خدمتهم وحمايتهم .

وابسط حل لهذه المشكلة هو اجرأ الحلول واوسعها نطاقاً : ان كلمة « الناس » يجب ان تعني الانسانية جميعاً . وهذا لا يقتصر على الاحياء من اهل الكرة اليوم ، بل يشمل مآثر الرجال والنساء فيما مضى من الزمن ، فهم لا يزالون احياء بيننا في المعاهد العلمية الكريمة ، والمباني العظيمة ، والكتب الرائعة ، والمخترعات الباهرة . ولا ينكر احد ان خدمة الانسانية جميعاً تتأتى اكثر ما تتأتى للفرد ، في خدمة جماعته الخاصة ، فالامة او المهنة او العقيدة تستأثر غالباً بولاء المرء لانها تضيف الى سعادة الانسانية قيماً لا تعوّض . ولكن الواجب يقتضي من كل انسان ان يستوثق من أن حصوله على المعرفة واستعماله إياها لن يلحقا بالانسانية أذى ما . فالموظف الذي يمنع توزيع كتاب مختلف في أمره ، والمعلم « التقدمي » الذي يختصر دراسة العلوم في منهج مدرسة أو كلية أو يلغي دراسة الآداب القديمة ، هما رجلان يدمران

مآثر الماضي ، ويتلفان تراث المستقبل ، لا يختلف عملهما عن تشويه صفحة صورة مشهورة ، أو صب حمض آكل على تمثال كريم ، أو جعل وثائق حادث تاريخي طعمة للنار . ليس للحاضر وجود ، ولا يوجد سوى الماضي والمستقبل ، وعلينا تقع تبعة حيالهما كليهما .

وقد أنشئت الكليات والجامعات ، ووضعت النظم للحفاظ عليها ، لكي تساعد الجيل الجديد على فهم هذه التبعة . وهي لا تصيب النجاح دائماً لأن منشآت الإنسان هي بطبيعتها غير كاملة . ولكنها تحاول . وقد كانت هناك معاهد من هذا القبيل في عالم الاغريق والرومان وفي طليعتها الأكاديمية . حيث علم أفلاطون ، واللسيوم الذي أسسه تلميذه أرسطوطاليس ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية وتدفق عليها الهمج ، لم يكد يسلم من هذه المعاهد معهد واحد . وما سلم منها سرعان ما أوصد أبوابه ملك متعصب . وقد ظلت المعرفة حية وهي لا تكاد ، في مدرسة طبية صغيرة هنا ، أو دير منعزل هناك ، أو بلاط ملك على شيء من المعرفة بالقراءة والكتابة . ولكن لم تكد تهل السنة الألف بعد الميلاد حتى بدأت الكليات والجامعات تظهر في طول أوروبا الغربية والوسطى وعرضها ، وكأنما كان ظهورها من تلقاء نفسه في المدن حيث كان الأغراب يلتفون حول معلمين ذوي شهرة ، أو يؤسسها راهب سخي أو أسقف حكيم .

جامعات باريس ، واكسفورد ، وسلامنكا ، وبولونيا ، وكراكاو ، وغلاسغو ، وبراغ ، قامت واحدة بعد واحدة ، وجعلت تتبادل المعرفة ، والنقاش ، وصارت خيرة علمائها ، ينافس بعضهم بعضاً ، وتنمو مواهبهم ، كأنما العقل زهرة تتفتح في دفء الربيع . ولم تكد تنقضي سنوات على استقرار المهاجرين الأوروبيين في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية حتى بدأوا يؤسسون الجامعات على مثال الجامعات التي عرفوها : جامعة القديس مرقص في بيرو ، وجامعة المكسيك التي طبعت في جوارها الكتب الأميركية الاولى ، وجامعة هارفرد ، التي اتخذت اسم قس درس على جون ملتون ، وأنشأ مكتبته الأولى بكتب جاء بها من جامعة كمبردج الى العالم الجديد . ففي هذه القرون الأخيرة حققت الجامعات في أوروبا واميركا ما عقده عليها مؤسسوها من رجاء نبيل ، وقد أسدت الى الانسانية خدمات شريفة . فهي تستحق كل إكرام ، والذين أسسوها وساعدوا على المحافظة عليها يستحقون كل إكرام أيضاً ، فهذه الجامعات هي من أمتن دعائم القوة في حضارتنا .

الفصل الثالث

تكريس

ان اعظم ما يُجزى به الطالب في هذه الجامعات هي ان يحس ويستمتع بهذا التراث وتقاليده الزاخرة الكريمة .

في جامعة اكسفورد ، يقوم بين الاشجار ، معمل للابحاث هادئ متواضع : هنا اتم فلوري وصحبه اتقان عقار البنسلين . وفي قلب مدينة برلين بناء مهدم كان من قبل قصراً ملكياً ثم صار جامعة عظيمة . وفي اروقة جناح من اجنحته ، لا يزال يتردد وقع اقدام المؤرخ العظيم مومسن وصدى صوته العالي . وهذه غرفة قديمة في مونبيليه مزنّرة جدرانها بألواح الخشب ويرقص في داخلها ضياء الشمس الذهبي : هنا حاضر رابليه في الطب الاغريقي القديم وعلم التشريح الحديث ، ولا يزال هو يطل على رواد الغرفة من صورة له معلقة على الجدار . وفي باريس ثكنة كالحة قبيحة ، تكثر فيها الحركة والضجيج ، ولكنها مدرسة النورمال العليا : وليس باستور

سوى واحد وحسب من العقول اللامعة التي عملت وعلمت فيها . وهذه بناية هادئة في بايل حيث استطاع عقل غبز الرصين المنطقي أن ينشىء قوانين علم الحركة الحرارية (ثرمو داينامكس) . وهذا السلم المتداعي في هارفرد ، كان يردد صوت كيتردج ، أقوى الذين وضعوا فلسفة الآداب . وهنا بين سطوح كولمبيا العالية لا تزال الأنوار مضيئة في ذلك المعمل حيث استكشف الباحثون أسراراً أدق من أن تدركها الحواس ، وحيث أكمل رابي تلك الحسابات الدقيقة التي أنالته جائزة نوبل للفيزياء .

وحسبك ان تطأ بقدميك ارض هذه الغرفة ، وان لم تعرف شيئاً ، سوى بسائط العمل الذي تم فيها ، حتى تنسى نفسك الصغيرة ، وتجل حماسة المفكرين والمعلمين وجهدهم وما بذلوهُ في بنيان عالمنا ، وحتى يستولي عليك شعور بأن النهر الكبير في عظمة جريانه هو اشبه ما يكون بالعقل في تقدمه الذي لا يكف ، العقل العجيب على ما فيه من نقص ، الفذ في كل فرد ، المتسامي فوق جميع الافراد ، العقل — تلك القوة الخفية التي اخرجتنا من همجيتنا الى الحضارة والحكمة ، وستسير بنا الى آفاق ابعد ، واذا بك تجعل نفسك مرة اخرى وقفاً على غرض الجامعة ، وهو كشف المعرفة وحيازتها ونشرها في سبيل خدمة الانسانية جميعاً .